

الحياة في اللغة العربية

الأستاذ إلياس فنصل "البرهنية"

- 1 -

شكلية خلاصتها اضافة زوائد على الكلمة او تغيير آخرها .

وهذا التحوير يكبر الكلمة في « العين » فقط .
وما هكذا اللغة العربية .

ان اللغة العربية حين تود ان تضع الكلمة في قالب المبالغة تعمد الى « الحياة البشرية » منتقبس منها ما يبيح في الكلمة روح هذه الحياة .

واترك الموضوع قليلا على ان اعود اليه بمرحلتين .

ان الرجل الذي ينعم بميزات الرجل لا يستطيع ان ينال من تحديقك اليه ما ينال الرجل الذي شامت الطبيعة ان تضع فيه بعض ميزات المرأة .

انك تمر بالرجل « العادي » فلا تحفل به .

ولكنك اذا مررت برجل قد برز نهداه — مثلا — فلا يسلمك الا التفكير به قليلا او كثيرا لان بروز النهدين من خصائص المرأة لا من خصائص الرجل .

وما نقوله عن الرجل نقوله عن المرأة .

ولا نعبأ بشمورك ازاء هذا التجاوز او ذاك على الحدود الرسومية لاحد الجنسين : ما نشير اليه هو ان هذا التجاوز يلفت نظرك .

وقد ادركت اللغة العربية هذه الظاهرة فطبقتها على صيغة المبالغة .

تختلف اللغة العربية من غيرها من اللغات بأن « الحياة » التي فيها حياة خلقة مبدعة ذات عبرية خاصة . وفي الوقت الذي نجد بقية اللغات أدوات للتعبير متى بلغت مقد بلغت غايتها القصوى وانتهت مهمتها نجد ان الضاد لا تكتفي بهذه الغاية بل هي تريد ان يكون التعبير جميلا وتريد ان يمتد هدفها الى اكثر من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال والسذوق والذكاء : فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتولد من نفسها كالطاقة الذرية سواء بسواء .

ولو احببنا ان نضع للامر مثلا بسيطا يقربه الى الازمان لاستطعنا القول ان بقية اللغات كالمسامات العادية تضبط لك الوقت اترب ما يكون الى الدقة ، اما اللغة العربية فكالمساعة الذهبية التي لا يمكن الا ان تكون مثال الدقة في ضبط الوقت لان معدنها يحمل صانعها على مراعاة تيمتها وتوفير الانسجام بين آلتها الداخلية وغلانها الثمين — دفعة واحدة — آلة لمعرفة الوقت بالدقة المتناهية واداة للزينة تلمست الانتظار ورصيد مادي يحتفظ بتميته الابرائية .

وياتيك البرهان في صيغة من صيغها العديدة :

« المبالغة » في ايسر صورها هي تضخيم الشيء بحيث يتوجه اليه الانتباه وقد حلت اللغات الاخرى هذه المشكلة — اذا جاز لنا ان نسيبها مشكلة — بطريقة

وليعذرنا الجنسان — اللطيف والغشن — لما
أردنا الا تقريب الغضبية الى الاذهان .

ان لغتنا تمتاز كما اشرنا بهذه النفحة من الحياة
التي تطل من تراكيبيها وصيفها ومشتقاتها ومن كلماتها
أيضا . وهذا سر من اسرار عظمتها وهجروتها .

لقد حاربها الطفافة في مختلف مهودهم وحاولوا
ان يقضوا عليها .

ثم .. ذهب العناية وظلت لغة الضاد —زود
القومية العربية بالقوة والجمال والخلود .

— 2 —

الحياة في اللغة العربية حياة خلقة مبدعة ذات
عبقرية خاصة — كما اشرنا سابقا — وهي لا تكتسى
بمسيرة التطورات المستحدثة — كما تفعل بقية اللغات
— بل يجد الباحث فيها « حركة بشرية » في تعاملها .
فكانها كائن حي يذهب ويجيء وتموج فيه المواطنسف
والاهاسيس .

ومن أبرز الميزات في اللغة العربية ان كلماتها تنم
بهذه الحياة وبهذه الحركة التي نصف في الوقت الذي
نجد الكلمات في سائر اللغات أدوات جامدة لا يدب
فيها شيء من الحياة الا بعد ان تجتمع طائفة منها الى
بعضها وتؤلف عبارة .

كتبت فئة من المتبحرين في علم اللغة ان الكلمات
العربية ذات اصول ثابتة تنفرع منها المعاني المتقاربة
— مثلا النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف
معاني البروز والنبو — فانظر الى نموع هذا الجذر :

نبت = برز من الارض .

نبط = أخرج ماء البئر

نبع = خرج من العين

نبغ = خرج وظهر

نبق = خرج وظهر

نبك = ارتفع

الى آخر ما هنالك من الكلمات التي تتشابه في
الاصل .

هذا ما كتبه فريق من العلماء وقد اتخذوا كثيرا
من الاصول ادلة واضحة صريحة .

فماذا شامت ان تصف رجلا كثير الرحلات قالت
عنه انه « رحالة » .

انها تقدمه لك وقد لحقت به التاء التي كان من
حقها ان تلحق بالكلمة المؤنثة . جعلت ذلك لتلفت نظرك
الى صلة المبالغة فيه .

واذا وصلت لك رجلا واسع العلم قالت عنه انه
علامة .

وهكذا .

ان اللغة العربية في عبقريتها لا تكتفي بالطريقة
المشككية باضافة التاء الى الكلمة بل تمهد كذلك الى
المعنى فتغير صفته وتملا « عينيك وخاطرك » في نفس
الوقت .

ان خصائص التانيث في الكلمة هي الوجه الاخر
الذي يضع امام « الفكر » صورة صادقة من المبالغة في
حين ان اضافة الحرف — التاء — وتشديد عين الكلمة
هي الوجه الاول الذي يضع امام « العين » الصورة
المطلوبة .

وانت تنتقل بالمبالغة من « العين » الى « الفكر »
ليتم المتعود من التحوير لتستطيع ان تلم اوسع الالمام
بالمبالغة المتوخاة من التغيير .

وما ينطبق على الكلمات المذكورة ينطبق على
الكلمات المؤنثة ولكن بوسيلة مكسبة .

ان صيغة المبالغة في الاولى هي الحاق علامة
التانيث بها .

ومن الطبيعي والمنطقي ان تكون المبالغة في
الكلمات المؤنثة حذف لامات التانيث منها .

واذا بالمرأة التي تصون نفسها امرأة « مصونة »
— لا امرأة مصونة — . واذا الحرب التي لا تبقى ولا
تذر الحرب الفروس — لا الحرب الفروسية — .

ان هذا التغيير او هذا القلب يجعل عينيك
تلتفت الى ما اريد من المبالغة ، ويجعل عقلك يمتلئ
بالصورة التي وضعت لها .

ان تاء علامة ورحالة وما اليهما هي بروز النهدين
في الرجل .

وان حذف تاء التانيث من مصونة وفروسية وما
اليهما هي اللحية في ذقن المرأة .

واجتهادنا الوضيع في هذا الصدد ان اللغة العربية في معبريتها لم تكتف بهذا « المنطق » الذي هو في حد ذاته قاعدة بل عمدت الى ابعاد من ذلك . وها هي ظامرة جديدة من ظواهر حياتها وحركتها حتى في الكلمات :

ان اللغة العربية « تتساهل » اسمى ما يكون التساهل حيال من يتكلمها كما يفعل الرجل الكريم الشيم ازاء صاحبه تماما .

خذ مثلا كلمة غضروف :

ان اجتماع الغين والضاد يثقل احيانا على اللفظ وتناسق الحركات في الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن اخواتها في العبارة - وفي السرعة الزلل .

لماذا تعمل اللغة العربية لتتلاقى هذا الامر ؟

انها تتساهل معك وتقول :

اذا لم تستطع ان تلفظ كلمة « غضروف » فاللفظ كلمة « فرضوف » فانها هي نفسها .

وهكذا تترك لك اللغة المجال واسعا حتى اذا استتقلت اجتماع الغين والضاد وضعت بينهما الراء او اذا انسابت الكلمة من فمك سريعة الانفصال عن مكانها في العبارة امنت الزلل الذي يمكن ان تقع فيه من تناسق الحركات في الكلمة .

ان اللغة العربية لا تتعمت الى الدرجة التي تشعر بالبغض لها ، بل هي تأخذك بالحسنى ماذا أنت من « نبالة عواطفها » ومن « شهامة اخلاقتها » اسير لا تكاد تملك من أمرك شيئا .

وهاك مثلا ثانيا :

« القاف » حرف حلتى يصعب لفظه على البعض ولا بد من لفظه على من يتكلم الضاد . ولكن اللغسة العربية لا تتزمت بل تتساهل كماداتها وتقدم لك برهانا جديدا على « طيب عنصرها » .

اذا لم يكن من الهين عليك ان تقول :

دق : ومعناها كسر .

فلا بأس قل :

دك : ومعناها هدم .

ان اللفظتين تتقاربان في الاداء بحيث يمكنك ان تنيب الثانية مناب الاولى - هذا اذا كنت كما اشرنا ترى من الصعب التلفظ بالقاف .

وهذا التساهل من طبع اللغة العربية ولا يسري على كلمة مفردة بل على كلمات كثيرة .

وليس من عمل الصدف ان تكون لفظة « ريك » قريبة جدا من لفظة « رتيق » .

وليس من عمل الصدف ان تكون كلمة « قط » مرادفة لكلمة « قد » و « تت » .

وليس من عمل الصدف ان تكون « لفض » و « لظلف » بمعنى واحد تقريبا .

واذا لم تشأ ان تقنع بهذا التساهل الفريد بين جميع لغات العالم احنالك الى الدليل الذي ما يصده دليل على ان التساهل هو من طبع هذه اللغة .

لقد نوعت اللغة الحركات على كثير من الكلمات حتى اذا لفظتها - على غير يقين من شكلها - لم تكن فيها على خطأ .

البصل البري اسمه المنصل (بضم الصاد) والمنصل (بفتح الصاد) والمنصلا (بضم الصاد) والمنصلا (بفتح الصاد) .

والاربعاء الفظها كما يمن على بالك بضم الباء او فتحها او كسرهما .

وهذا التنوع والتشكيل في المصدر :

فاس فوصا وقيامسا وقيامسة ومفامسا

اتريد ارحب من هذا الميدان ؟

اتريد اكرم من هذا الكرم ؟

لا . لا .

اننا نحن الذين لم نعرف قيمة هذه اللغة الفريدة من نوعها .

اننا نحن الذين لم نجعل حتى الآن الا القليل القليل من اسرارها .

اننا نحن الذين لم ندرك ما في كلماتها وحروفها من حياة وما في تراكيبيها من منطق وشعور .